وظيفة أهل التصوف في تحسيس المجتمعات ضد التطرف

حافظ محمد منير الأزهري *

الحمد لله رب العلمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، أما بعد فأعوذ بالله من الشيطن الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم . قال الله تعالى : " أَفَمَن شَرَحَ الله صَدرَهُ لِلإِسلاَمِ فَهُوَ عَلٰى نُورٍ مِن رَبِّهِ " (١).

يدور البحث حول وظيفة أهل التصوف في تحسيس المجتمعات البشرية ، فالوظيفة من أهم الخصائص التي اتصف بها رجال العلم والحكمة ، ولا شكّ فيه أن العلم والحكمة يتطلبان الأداء والكفاءة في توصيل الإصلاحات الفكرية والأخلاقية والروحانية إلى البشرية جمعاء ، تلك الإصلاحات تنبع من صميم العلم والحكمة ، لأن الجميع يريد الإصلاح لذواتهم وللآخرين في تحسيس المجتمعات ضد التطرف والإرهاب .

ومن اللافت للنظر أن التطرف لا يكون في أمور الدين فحسب بل يمكن في جميع أمور الحياة التي تتعلق بها ، التطرف سلوك نفسي يظهر عند الإضطراب النفسي الذي يدفع الإنسان الآيس إلى الفساد والخراب ، لأن الإنسان دائما يتفكر في التقدّم والترقي من الأسفل إلى الأعلى حتى يتمكن من الوصول إلى المراتب العليا، وعندما يفشل الإنسان في نيل مرامه النبيلة التي تفكّر بها في الأيّام الفائتة ، فيبدأ فكره في تحطيم العلاقات الإنسانية ، ومن هنا لا يريد الحياة أصلا لذاته وللآخرين .

هذا المبدأ التعارفي يمكن لنا الإطلاع على التطرف وجذوره ، وأيضا إننا نفهم هذا السلوك مشكلة من المشاكل الإجتماعية والدينية والأخلاقية والروحانية ، فعندما تحددت المشكلة فعلينا التوجّه إلى اقتلاع جذور مشكلة التطرف ، ثمّ توجيه الناس إلى الإصلاح والتحسين.

* الاستاذالمساعد، الجامعة الازهرالشريف،مصر

فالبحث يقسّم إلى مطلبين ، أما المطلب الأوّل فيتيح لنا التعرف على التطرف كمشكلة اجتماعية منذ العهود الأولى حتى عصرنا الراهن .

المطلب الثاني يذهب بنا إلى حلول سليمة لإخراج الإنسانية من مشكلة التطرف بالإضافة إلى ذلك وظيفة أهل التصوف في توجيه الإنسانية إلى التطرف وأضراره على الإنسان والمجتمع ، ثم تأتي المساعي الصوفية في تحسيس المجتمعات ضد التطرف .

وتأسيا على ذلك يعرض النموذج " الطرق الصوفية " في إزالة المشاكل الإرهابية ، و تحسين العلاقات مع الآخرين في جميع الأمور التي تتعلق بالحياة الإنسانية.

المطلب الأوّل

المشكلة الاجتماعية في معرفة مظاهر التطرف والإرهاب

ومن الطبيعي أن مظاهر التطرف والإرهاب تترأى في المجتمع حينا بعد حين ، لأن الطبيعة الإنسانية تريد الاستبداد كما أكده القرآن بقوله " وإذا مسّه الخير منوعا " ، فالذي يمنع الآخرين من الحصول على الخير هو المستبدّ ، وطبعا أن الخير يشمل الثروة الفكرية التي تكون بمثابة الأساس، أمّا العمل فيكون كالبنيان الذي يهيّئ لنا الراحة بعد التعب الشديد المقترن بالعمل.وعندما نتعمق في المبررات التي سرّبت الإرهاب في شرايين المجتمعات البشرية فنجد أن هناك فئات تؤثر في طبقاتنا الاجتماعية، وتختار بعض الحيل التي تخدع الآخرين في استخدام أساليب العنف والتشدد مما يسوقنا إلى التعرف على الحقائق الخافية علينا ، والتفصيل مما يلي:

الأسلوب الأوّل

بعض الفئات من الجماعات الإرهابية تخطف الشباب الفقراء بإسم الدين وتستغلهم لتدمير هياكلنا المجتمعية ، هئولاء الشباب لا يعرفون الدين ولا التعاليم التي تربيهم تربية صحيحة ، ونتيجة على ذلك يمتثل الشباب كما أمروا من الأغنياء المتطرفين ، وهذا ما نراه الآن من مظاهر التدمير والخراب في عالمنا اليوم.

هذا الأسلوب يلفت الشباب من الفقراء لأنهم يريدون المال لأهلهم في هذه الدنيا وبعد ذلك من عيش الآخرة ، ولذلك توّجه كثير من الشباب إلى تلك الظاهرة الرائعة ، باطنها مليئ بالنفاق الذي يسبب تخريب العباد والبلاد.

الأسلوب الثاني

يتكون المجتمع البشري من عناصر الغنى والفقر ، فالشباب الفقير يختطف بإسم الدين ، أمّا الشباب الغني فيخدع بأن أهل التصوف أصحاب البدع والشرك ، يستحقون العقاب الأليم في الدنيا والآخرة، ولذلك أن أمر الدنيا مفوض إلى الشباب الغني الذي يتمتع بألوان الترف والعيش ويحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فأمر الدين يختص بالجماعات والمؤسّسات التي تنشر الدين وفق أغراضهم الدنيئة.

وفي ذاك الإطار أن أصحاب الفكر الإرهابي يأخذون الأموال الطائلة من الشباب الغني ، ويستخدمونها في نشر العقائد التي تشوّه الإسلام على جميع الأصعدة.

الأسلوب الثالث

ينطوي المجمتع البشري على طبقات دينية وغيرها من الطبقات التي تتعلق بالتجارة والسياسة ، والحرفة والصنعة بكل الأنواع والأقسام ، وهذا بديهي أن هذه الطبقات التي لا تمارس الدين ، لكنهم يريدون حياة آمنة في الدنيا والآخرة .وتأسيسا على ذلك أن أصحاب الفكر الإرهابي يستغلون هذه الطبقات بأخذ الصدقات والمعونات منهم ، ثمّ يصرفونها في إحراج أهل التصوف الذين يعيشون في المجتمع نفسه .

الأسلوب الرابع :يتجسد ذلك الأسلوب في نشر الكتب والمقالات والمجلات التي تقدم صورة مشوّهة للتصوف وأهله ، عندما يصل ذلك الكمّ الهائل من المواد المطبوعة إلى المثقفين من العالمين العربي والإسلامي ، فيتأثرون بهم تأثيرا جزئيا أو كليا حتى توصيل المادّة الضارة إلى جميع المدارس والكليات والجامعات والمعاهد العلمية التي تحتاج لمثل هذا العمل لكي يستمروا في الكتابة والقراءة في حلقاتهم وأوساطهم .

الأسلوب الرابع

يوضّح ذلك الأسلوب أن الخلايا الإرهابية تجعل المجتمعات الإسلامية تحلم بالإسلام السياسي ، وهذا هو الحلم الذي يراه الجميع من مختلف الطبقات في تنفيذ الشريعة الإسلامية في خبايا الأرض وزواياها.

وبهذا الصدد نلحظ أن أصحاب الفكر التطرفي يخدعون البشرية جمعاء بمقولتهم المشهورة " أهل التصوف عائق كبير من عوائق تنفيذ الشريعة الإسلامية " ، ولذلك هم يقولون للجميع من الذين يريدون تنفيذا سياسيا من منظور الإسلام " علينا أن نزيل هذه العوائق والعقبات من قبل أهل التصوف في ترويج الإسلامي السياسي .

ذلك الاسلوب أو ما شابهه نراه في عصرنا هذا ، ولا شكّ فيه أن الطبيعة الإنسانية تزمع أن تكون الأحوال الزمنية وفق النظام الإلهي ظاهرا ، ومن هنا يمكن الإستغلال بإسم الإسلام السياسي.ومن اللافت للنظر أن مثل هذه الأساليب نجدها في مجتمعاتنا ، فأحياناً نتوجه إليها ، وأحيانا نغضّ من أبصارنا بسبب الكسل أو الغفلة ، ولذلك يقال أن النار يبتدئ من قليل لكنه يحرق كثيرا بعد ذلك ، وكذلك الفكر الإرهابي الذي بدأ نشاطاته قبل قليل ، ثمّ زادت ، وزادت النشاطات حتى وصلت شعلة هذه الأفكار إلى بيوتنا ومؤسساتنا وتكاد تهلك كل من نملك من فكر وعمل وسلوك، ولذلك ينبغي الإلتفات إلى الحلول التي تنقذنا ومؤسساتنا وأجيالنا في المستقبل إن شاء الله تعالى.

المطلب الثاني:الحلول السلمية لتحسيس المجتمعات ضد التطرف والإرهاب

كما لاحظنا آنفا أن المشكلة الإرهابية تحيط بنا وتتطلب منا وقفة متأنية للتفكر والتمعن في تقديم الحلول التي تستطيع أن تقدّم الصورة الصحيحة للتصوف الإسلامي وتدفع المجتمعات إلى الإحساس العميق متمثلة في التراث الصوفي الأصيل ، متجذرة في المصادر الإسلامية .

وهنا بعض الحلول في إطار الفكر والعمل نتقدم بها فيما يلي :

١ – فتح المدارس والمؤسسات العلمية والفكرية

ومن المعلوم أن العالمين العربي والإسلامي يحتويان على كثير من الطبقات الفقيرة ، ولذلك توجهت الجماعات الإرهابية إلى استغلالها بإسم الدين ، هذه الجماعات تنفق ما يحتاجه الفقير من مال وكسوة وملجاء ، وهذا ما نشهده في الآوانة الأخيرة أن الشباب من الأسر الصوفية تحولت حياتهم السلمية إلى حياة فاسدة مليئة بالتطرف والإرهاب ، وهذا من واجبات أهل التصوف أن يوصّلوا إليهم الفكر السليم والعلم الصحيح بفتح المدارس في الزوايا الصوفية ، والخانقاهات ، وكذلك تكون المساعدة الفكرية من اهل التصوف للمدارس والكليات والجامعات الحكومية لأن هناك حاجة ماسة في المجالات الفكرية والعلمية.

هذا أمر ملحوظ أن الطرق الصوفية فتحت سلسلة من المدارس والمؤسسات العلمية في داخل المغرب وخارجها لتعليم الأجيال وتربيتهم تربية على نهج الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم. وتهدف الطرق الصوفية من منظور مؤسّسته التعليمية ، حسب تصريح الدكتور عبد المغيث بصير في حديثه إلى هسبريس، "إلى الحفاظ على تعاليم الدين الإسلامي الحنيف وتأصيل القيم الأخلاقية النبيلة، والحفاظ على الوحدة المذهبية للأمة والمتمثلة في المذهب المالكي ونصرة القضايا الوطنية، وتعليم القرآن العظيم حفظاً وتجويداً وتفسيراً، وتكوين المواطن الصالح المتصف بالاستقامة والصلاح والمتسم بالاعتدال والوسطية والتسامح، وتخريج طالب شغوف بالعلم، وبطلب المعرفة، يتميز بروح المبادرة، والإنتاج النافع، ثم الانفتاح على مختلف العلوم النقلية والعقلية وعلى اللغات الأجنبية و التقنيات الحديثة، ناهيك عن إشاعة ثقافة التضامن و التسامح والاعتدال و إشاعة ثقافة الوسطية، وترسيخ الالتزام بالقرآن الكريم والسنة النبوية حفظاً و سلوكاً، والسعي على نشرها وتعليمها، ه بالإضافة إلى المساهمة في التعريف بمشاركة المغاربة في العلوم الإسلامية، والقرآنية منها على وجه الخصوص" (٢)

تربية الأطفال في طفولتهم أمر اهتمّ به التربويون ليسلكوا بهم إلى طريق العلم والتقدم ، والبعد عن التطرف والإرهاب ، وهذه وسيلة من وسائل التحسيس ضد التشدد والتعنت في المجتمع الذي يعيش فيه اهل الديانات المختلفة.

٢ – توفير الكتب والمجلات في مجال التصوف

الكتاب ذريعة من ذرائع العلم والحكمة كما أنزل الله الكتب على عباده المختارين من الأنبياء والرسل لمعرفة الرسالة الإلهية ، فالكتاب وثيقة محكمة يعتمد عليه التجمعات البشرية ، ولذلك طبع الإنسان على طلب المعرفة ، والكتاب يسدّ حاجته .

كثير من المثقفين يريدون قراءة كتب التصوف وكل ما حوله في العصر الراهن لأن الغذاء الفكري يريده الإنسان في إرواء الظما العلمي ، ولا غضاضة فيه ان عددا لا بأس به من الطرق الصوفية توجهوا إلى إخراج الكتب الصوفية مستقاة من القرآن والسنة على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم، وكذلك نرى عملا فكريا من الزاويا الصوفية على المستوى الدولي في تحسيس المجتمعات ضد التطرف بنشر التعاليم الصوفية من كتب ومجلات ومقالات توضّح تمام الوضوح من العقيدة والعمل والسلوك .

٣ – عقد اللقاءات في في أمكنة متفرقة

اللقاء يزيل ما أثير حول الموضوع لأن الإنسان يتأثر بالكلام والعمل ، فصوفية الإسلام يقابلون الناس لإرضاء الله ورسوله عليه الصلاة والسلام عملاً بحديث الرسول عليه الصلاة والسلام كما جاء في صحيح مسلم

عن أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه-، عَنْ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- : «أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ : أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ؟ قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ : لاَ، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ : فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ« (٣)

وعن مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ :«قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ)«(٤)

فالسلف الصالح لهم اهتمام خاص باللقاء لأنهم يتيقنون بأن الله يعطيهم من علم وحكمة وعرفان كما نرى أن الصوفية يسافرون إلى أمكنة بعيدة لهذا الغرض السنيّ المتجسد في اللقاء الروحي كما قال الإمام علي رضي الله عنه وأرضاه " الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها إئتلف ، ما تناكر منها إختلف " .

وللحصول على التعارف بين الشعوب والقبائل يفرض السفر على رجال التصوف-هذه الظاهرة تترآى في الطرق الصوفية التي تهتّم باللقاءات الأسبوعية ، والشهرية والسنوية في أمكنة ومدن مختلفة في بيان المسائل من الشريعة الإسلامية .

٤ – عقد المؤتمرات في الزوايا الصوفية

المؤتمر هو الفرصة لإظهار ما هو مكنون في الأذهان والعقول ، فالمثقفون والباحثون يحضرون المؤتمرات محليا أو دوليا للبحث عن موضوع من موضوعات مختلفة ويحاولون التوصّل إلى نقطة مشتركة بين الحاضرين ، ومن اليقين أن المؤتمرات تعقد لهدف عظيم لأنه يتطلب المشقة في عقده من ناحية ، ويجلب العلم والمعرفة في مكان واحد من ناحية أخرى.

وتأطيرا على ذلك أن العلماء والباحثين يهتمون بالمؤتمرات للحصول على المستجدات من العلوم والمعارف وتقديم ما لديهم من تجارب وخبرات علمية ثقافية ، ومن الممكن أن نقول أن المؤتمر لقاء محلي أو دولي في إبراز الأفكار والآراء .

وهذا من المسلمات أن الصوفية بدأوا في عقد المؤتمرات منذ أمد بعيد على الصعيدين المحلي والدولي ، وإننا نرى التأثيرات الإيجابية على الطبقات المختلفة من المجتمعات المحلية والدولية ، وهذا من ناحية تحسيس الجاليات الإنسانية نحو التعاليم ذات القيم السامية وضد التطرف بجميع الألوان والأشكال.

فالطرق الصوفية تصدت لعقد المؤتمرات لتصحيح الأفكار المغلوطة لدى المسلمين وغيرهم، وأن هدفهم تبليغ رسلت الله إلى كافة الناس بصرف النظر عن الجنس والعرق واللون ، ولذلك يلاحظ أن المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى يحضرون هذه المؤتمرات لتلقي ما هو مفيد لهم في دينهم ودنياهم .

ولا يخفى علينا أن الطرق الصوفية عقدت المؤتمرات لبيان الموضوعات التي تهم الإنسانية ، مشاكلها وعلاجها في ضوء القرآن والسنة على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم وإننا على يقين أن هذه المؤتمرات تستمر في السنوات القادمة لجمع العلماء والمفكرين وأصحاب التصوف من جميع أنحاء العلماء للبحث عن الحلول السلمية للمشاكل الإجتماعية .

وهناك أمر آخر يوجّهنا إلى هذه المؤتمرات تتيح الفرصة للتعرف على مساعي التصوف التي أنقذت البشرية من الهلاك والفساد ، وتوفّر المحبة والأخوة دون حسد وعناد .فوظيفة أهل التصوف أن يركزوا على العمل الدؤوب للتمييز بين السقيم والصحيح ، وبين الحق والباطل لأن التحسيس يأتي من هذه الناحية ، وهذه الناحية مهمة جدا في إظهار التحسيس ضد التطرف والإرهاب

٥ – إستخدام مواقع التواصل الاجتماعي على الإنترنت ، والموبايل

الإنترنت ومواقع التواصل الإجتماعي أصبحت من أهم الوسائل لنقل المعلومات للآخرين، فالناس من جميع الطبقات يستخدمون مثل هذه المواقع للتواصل بينهم ، وفي إعتقادي أن من وظائف أهل التصوف استخدام هذه الوسائل لتحسيس المجتمعات ضد التطرف والإرهاب.

وأمامنا نموذج رائع يتمثل في الطرق الصوفية التي تستعمل هذه الوسيلة للتحسيس وتوصيل الأفكار السليمة للجميع في العالم وينبغي أن يحتذي بها الآخرون في نشر السلم والإعتدال.

٦ – إستخدام وسائل النقل والإعلام

ومن الطبيعي أن الدول تذيع المعلومات عن طريق الإذاعة والتلفزيون ، فالناس يتفرجون على التلفاز صباح مساء ويستمعون للإذاعة للتلقي أخبارا والبرامج على موضوعات مختلفة . ومن المناسب أن الدور الذي ينبغي أن يؤديه أهل التصوف عبر التلفزيون والإذاعة يكون منظّما ومرتبا بالبرامج التي تحتاجها الإنسانية.

وفي العصر الراهن رأينا القناة الصوفية وغيرها في القنوات الفضائية تؤدّي دورها المؤثر في نشر الأفكار الصوفية .وفي هذا السياق ينبغي التوجه إلى أن القاديانيين ينشرون أفكارهم عبر القناة الأحمدية في اللغات المختلفة من العربية ، والإنجليزية ، والأردية ، والبنغالية وغيرها.وهذا أمر معلوم أن القاديانية تنكر ختم النبوة ، وفي إعتقادهم يبعث الأنبياء بعد خاتم الأنبياء والمرسلين النبي المعصوم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.ومثل هذه الفتنة تروّج الجماعات الإرهابية أفكارها الفاسدة والمتشددة لتغليط المفاهيم الصحيحة.وبناء على ذلك أصبح الأمر محتوما لأصحاب التصوف أن يستخدموا هذه الوسائل للتحسيس ، ويؤسّسوا القنوات الجديدة لنشر أفكارهم مأخوذة من النقل والعقل .

و لابد من توجيه الأنظار إلى أفكار وأعمال الطرق الصوفية على الصعيدين المحلي والدولي، من الرجال العظماء الذين غيّروا مجرى التاريخ الإنساني ، وكرّسوا حياتهم في خدمة الإنسانية ، وخلّفوا آثارهم الطيبة للأجيال القادمة كما نسعد بملاحظة الطرق الصوفية الآن بالأعمال الجليلة والتاريخ شاهد عليها وهذا ما قال عن أحد رجال التصوف ، المؤرخ العلامة سيدي محمد المختار السوسي رحمه الله: "سيدي إبراهيم البصير الشيخ الكبير القدر الذي ظهر ظهورا كبيرا بين مشايخ الصوفية في هذا العصر وله بينهم مكانة لا تخفى ...فعرفنا أنه في الحقيقة رجل خلق صوفيا روحانيا يزهد في الدنيا بطبيعته ولا أرب له إلا أداء حق ربه ... وقد نجح تمام النجاح في كل ما زاوله مما خلق له في هذا الميدان ولا ريب أنه من خلق لشيء ثم تيسرت له

المدارك التي يتطلبها ثم لاحظته عيون السعادة في عمله، هو رجل فذ في أي ميدان من الميادين الحيوية كان".(٥)

فظهر من هذا أن الطرق الصوفية التي نشرت الأفكار الصوفية المتأصّلة في التراث ، ولم تخف في سبيل ذلك لومة لائم ، وقام بالخدمة كما كان ينبغي ، وربّى الإنسانية على الأخوة والمحبة.

هذه الزاويا الصوفية قدّمت ما لديها من علم وأخلاق وسلوك وروحانية لتزيين الكائنات، وتحسيس المجتمعات البشرية ضد التطرف والإرهاب ، وهذه خطوة من خطوات سلكها السالكون ويسلكونها إلى من يرث الله الأرض ومن عليها .

الهوامش

[١] - سورة الزمر٣٩ :٢٢

[٢] - http://www.hespress.com/%D٨٪B٢٪D٩٪٨٨٪D٩٪٨٨٪D٩٪٨٥/٢٣٥٧٣٩.html

[٣] –امام مسلم ،الصحيح،كتاب البر والصله،باب فى فضل الحب فى الله،طبع بيروت،رقم الحديث٢٥٦٨

[٤] –امام مالک ،موطا، رواه مالك في الموطأ ٢،صفة النبى،باب ماجافى المتاحبين فى الله عزوجل/٩٥٣ ح: (١٧١١)، وأحمد ٥٣٣/٢ وصححه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح رقم ٥٠١١

[٥] - http://www.chadakhbar.net/news٢٥٦.html